الفصل الثالث

الإيمـــان

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الأنعام: ٨٢]

ـ هو الأمان الذي يطمئن القلب به حيث تأوي النفس الضعيفة إلى القوي المتين ، وتستظل بعرش ذي السلطان المجيد.

ـ وأساسه: الإيمان بوجوده تعالى ، خالقاً ومربياً وممدّاً ومسيراً للكون وللإنسان.

ـ تعريف الإيمان:

هو تصديق بالقلب وإقرار باللسان وعمل بالجوارح والأركان ، ولا يكون إلا بالغيب بناء على: ثوابت علمية ، أو خبر صادق عن رسول الله ﷺ ، فالإيمان واجب على جميع الخلق.

ـ فمن أعمال القلب: النيات والإرادات والعلم والمعرفة بالله تعالى وبما أمر به ، والاعتراف له والتصديق بما جاء من عنده ، والحب والبغض فيه والتوكل عليه ، والصبر والرضا بالقضاء والصبر على البلاء والشكر على نعم الله ، والنصيحة لله ورسوله ﷺ وكتابه ، وإخلاص الأعمال.

ـ ومن أعمال اللسان: الإقرار بوجوده وبما جاء من عنده ، والشهادة له بالتوحيد ولرسوله ﷺ بالرسالة ولجميع الأنبياء والرسل ، ثم التسبيح والتحميد والتكبير والتهليل والثناء على الله والصلاة على رسوله ﷺ ، والدعاء ، وسائر أنواع الذكر.

ـ ومن أعمال الجوارح: القيام بالطاعات والواجبات التي بني عليها

الإسلام (من صلاة وصيام وزكاة وحج وجهاد مع الأمير البر والفاجر)، وأعمال التطوع التي تزيد الإيمان، وترك الأعمال المنهي عنها والتي تنقص الإيمان، كالدعاء والنذر والتعظيم لغيره.

فالإيمان مبني على التسليم وعدم السؤال عن حكمة ما يجري والأوامر والنواهي والشرائع، فقَدَمُ الإسلام لا تثبت إلا على التسليم، وأول مراتبها: تعظيم الأمر الإلهي، ثم تصديقه، ثم العزم الجازم على الامتثال للأمر، ثم المسارعة إليه والمبادرة إليه، والحذر من القواطع والموانع، ثم بذل الجهد والنصح في الإتيان به على أكمل وجه، ثم فعله كونه مأموراً به لأنه تعالى: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]. لكمال حكمته ورحمته وعدله لا لمجرد قهره وسلطانه.

فلا يلزم من خفاء حكمته علينا عدمها ولا يلزم من جهلنا بها انتفاؤها، فكم خفي على الإنسان من حكم وأمور ثم ظهر طرف منها بعد الاكتشافات العلمية ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ. .﴾ [الجن: ٢٦ ـ ٢٧].

ـ أركان الإيمان:

١ ـ العلم بذات الله تعالى، وتشمل: وجودَه وقدمَه وبقاءَه.

٢ ـ العلم بصفات الله تعالى، وتشمل: أن يكون حياً، قادراً، مريداً.

٣ ـ العلم بأفعاله تعالى بالاستواء والعروج والرضا والفرح والغضب دون تجسيم أو تعطيل، وأن أفعال العباد مخلوقة له ومكتسبة للعباد، وأنها مراده، فهو متصف بالخلق والإيجاد، وأنه لا واجب إلا بالشرع، وأن بعثة الأنبياء جائزة، ونبوة محمد ﷺ ثابتة ومؤيدة بالكتاب والمعجزات.

ـ أوجه الإيمان:

ـ إيمان مطبوع (فطري) كإيمان الملائكة.

ـ إيمان معصوم، كإيمان الأنبياء عليهم السلام.

ـ إيمان مقبول ، كإيمان المقربين وعباد الله الصالحين.

ـ إيمان موقوف: إيمان أهل البدع والضلالات حتى التوبة وتطبيق السنة.

ـ إيمان مردود: كإيمان المنافقين (لا يقبل الله منهم عملاً).

ـ حكم الاستثناء:

وهو خوف التزكية (أن يقول العبد: أنا مؤمن إن شاء الله) كي لا يشهد العبد على نفسه بحقائق الإيمان وكوامنه وعلى ما يقع في المستقبل من أعمال ، والخاتمة التي لا يعلمها إلا الله والاستثناء على غير معناه شك.

ـ والاستثناء لا يكون في أصل الإيمان ولكن في خاتمته وإلا فهو غير مقبول.

ـ والإيمان تصديق: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ [يوسف: ١٧] ويثمر العمل والتطبيق.

ـ والإسلام استسلام والتسليم بالإذعان.

ـ والإسلام أعم والإيمان أخص ، فالإيمان الجزء الأعلى من الإسلام والجزء التطبيقي.

ـ وفي مجال الترادف: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٥ـ٣٦].

ـ وفي مجال التداخل: سئل رسول الله ﷺ: «أي الأعمال أفضل..؟ فقال: الإسلام ، فسئل: أي الإسلام أفضل..؟ فقال: الإيمان».

ـ ففي الاختلاف تفاضل المسميين ، وفي التداخل الإسلام: تسليم بالقول والقلب والعمل ، والإيمان بعض ما دخل في الإسلام وهو: التصديق بالقلب (خصوص الإيمان وعموم الإسلام).

ـ والإيمان بالملائكة هو من الإيمان بالغيب ، وعلمنا بهم هو ما وصلنا عنهم أنهم خلق عظيم من نور ولهم أجنحة مثنى وثلاث ورباع ، وأن

رسول الله ﷺ رأى جبريل عليه السلام وله ستمائة جناح قد سد الفضاء. صورهم حسنة ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾.

ليس لهم حاجة إلى الطعام والشراب والنكاح، خُلُقهم الحياء، مربوبون لله تعالى، لا يشفعون إلا لمن ارتضى، مفطورون على العبادة، مكلفون بتدبر أمر الكون ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ بأمر من الله تعالى، يحفظون الإنسان منذ تكوينه نطفة، ويستغفرون للذين آمنوا، كرام كاتبون.

ـ الإيمان باليوم الآخر كذلك من الإيمان الذي لا يتم إلا به: ويعني الإيمان بالموت وفتنة القبر والبعث والنشور، والحساب والميزان والصراط يجوزه المؤمنون كالبرق، ومنهم من يتعثر، وعليه كلاليب.

ومن أدلة البعث:

ـ أن الله خلق الإنسان وخلق من هو أشد خلقاً منه؛ لذا فلا يعجزه إعادة الخلق.

ـ أن الله خلق الإنسان أول مرة، فلا يعجزه الإعادة، وهو أهون عليه.

ـ أن نوم الإنسان سُبات ويقظته من النوم؛ كالبعث بعد الموت.

الإيمان بالكتب المنزلة على الرسل السابقين، وإن كان معظمها قد اندثر أو حُرِّف، وهذا يؤيد وحدة الرسل والرسالة والمرسل الواحد ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة: ١٣٦].

ـ كذلك الإيمان بالرسل السابقين وخاتمهم محمد ﷺ، وهذا فضل الله على عباده. وإن التكذيب بأي من الرسل أو الكتب أو بالملائكة أو اليوم الآخر هو تكذيب بالدين كله.

ـ والإيمان بالقدر ركن من الإيمان ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، ويعني الإيمان بعلم الله الشامل المحيط من أدق الذرات والجزئيات إلى الكليات ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢].

فعلمه تعالى لا يوجد فيه موجودات أو معدومات أو ممكنات أو

مستحيلات ، كل ذلك في كتاب يعلم ما كان وما يكون وما سيكون وما لو كان كيف يكون ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠].

ـ ولا بد من حفظ اللسان من القول على الله بغير علم؛ لأنه افتراء.

ـ وجود الإيمان:

والإيمان له وجود بعد الوجود يختلف حاله بالزيادة والنقصان فلا يقال: الإنسان يزيد برأسه لأن رأسه جزء منه ولكن يزيد بطول شعره ، كذلك لا تزيد الصلاة بالركوع أو السجود ولكن تزيد بالآداب والسنن والخشوع كما يؤثر سقي الماء في نماء الزرع ، كذلك يزيد الإيمان بالطاعات والنوافل والقربات ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [الفتح: ٤]. فيزيد الإيمان بتأثير الطاعات المخلصة في القلب (شعور خاص) وهذا لا يدركه إلا من راقب أحوال قلبه.

يقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرم الله وجهه في الجنة: الإيمان يبدو لُمْعة بيضاء ، فإذا عمد العبد إلى الطاعات نمت فزادت حتى يبيض القلب كله ، وإن النفاق ليبدو نكتة سوداء فإذا انتهكت الحرمات نمت وزادت حتى يسود القلب كله فيطبع عليه ، فذلك الختم ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ . .﴾ [البقرة: ٧] ، وقوله تعالى: ﴿بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤].

ـ والنفاق منه ما يخرج من الملة ويلحق بالكافرين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ﴾ [النساء: ١٤٠]. ونفاق ينقص من رتبة الإيمان. وأصل النفاق تفاوت السر والعلانية (أو الأمن من مكر الله) أوالعجب وأمور أخرى لا يخلو منها إلا الصدِّيقون.

كما أن من الذنوب والمعاصي ما تكون عقوبتها سوء الخاتمة: كدعوى الولاية والكرامة بالافتراء فمن اعتبر نفسه مؤمناً كامل الإيمان فهو كافر ، ومن اعتبر نفسه عالماً فهو جاهل. ومن قطع لنفسه أنه في الجنة فهو في النار ، ومن تألَّى على الله أنه لا يغفر لفلان فقد باء هو بهذا القول ، أو

العكس فمن قطع بصلاح آخر وأنه من أهل الجنة فقد كفر ، فالأمر منتهاه إلى الله وحده ﴿ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ [هود: ١٢٣].

ـ والشرك عكس الإيمان الذي هو الظلم ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان: ١٣] وهو يثمر الرعب لأن المشرك يخاف الخلق ويرجو منهم الخير ﴿ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ﴾ [آل عمران: ١٥١]، ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ [الحج: ٣١] ، وفي الحديث: «ما رجا عبد عبداً إلا خيبه الله».

فكل أعمال العبادة والتعظيم والنذور والزيارات لغير الله أو المناسك أو السجود والخضوع وإنفاق المال عبادة لغيره ، و الحلف بغيره أو اسمه شرك.

كل ذلك لا يجوز لا للأنبياء ولا للرسل أو الملوك أو الصالحين (الشيوخ)؛ لأنه شرك ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥].

فالاستعانة والاستغاثة والطلب من الله وحده؛ لأنه وحدَه يقال له: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة: ٤] ، فله الخلق والأمر وإليه يرجع الأمر كله ، فالقدرة له مطلقة لا يزاحمه رسول ولا ملك ، ولأن ﴿ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴾ [مريم: ٩٣].

والعبد لا يرجى منه ما يرجى من الرب ، وإلا فهو الظلم الذي هو عدم إعطاء كل ذي حق حقه أو كل ذي قدر قدره.

ـ كذلك لله تعالى وحده علم الغيب ﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [النحل: ٦٥].

ـ وأنه تعالى وحده النافع الضار ، له المنع والعطاء والرزق ، فلا ناسخ لأمره ولا معقب لحكمه ولا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع ولا ينفع ذا الجد منه الجد.

ـ والوحي أمره وحده فلا ينزل إلا بأمره وليس بأمر غيره من نبي أو ملك.

ـ والرياء شرك بالخلق.

ـ والعجب شرك بالنفس ، والإيمان والشرك من أعمال القلب.

وتعليق الرجاء بغير الله تعالى شرك كتعليق الشفاء بالدواء أو بالطبيب ، ولو أن الله تعالى جعل للشفاء أسباباً فلا تستعمل الأسباب إلا بالاعتماد على مسبب الأسباب.

ـ والشرك نوعان:

أ ـ أكبر لا يغفره الله إلا بالتوبة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨].

ب ـ أصغر وهو التصنع للخلق من دون الله أو التوبة لغير الله أو النذر لغير الله.

وإن ارتكاب الذنوب والآثام مهما عظمت إذا سلمت العقيدة من الشرك تبدل إلى حسنات بالتوبة النصوح؛ لأنها من مقتضيات البشرية ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨].

وفي الحديث: «كل ابن آدم خطَّاء وخير الخطَّائين التوابون».

ـ والإحسان: هو الإخلاص في العبادة ومراقبة الله تعالى التي تعين على الالتزام وتعصم الإنسان ، وترك النظر إلى فضول الدنيا.

ـ فوائد الإيمان:

تتحقق به إنسانية الإنسان لمعرفته بالمهمة الملقاة عليه (الخلافة في الأرض وعبادة الله) ويشعر بالاطمئنان والرضا في تأدية الأمانة التي حملها وقيمة المسؤولية.

ـ يتحقق الهدف الذي وجد لأجله (إقامة الخلافة).

ـ الالتقاء مع الملأ الأعلى دوماً بالسداد والهداية والبعد عن الوساوس.

ـ انطلاق الفطرة وتحررها وتصريف الشهوات بالقنوات الصحيحة بما يرضي الله تعالى.

ـ التعرف على نواميس الكون وكيف تتحقق أسماء الله الحسنى.

ـ العيش بالأمن من المجهول والرضا بالواقع والاطمئنان للمستقبل (الآخرة) فيرى ما يجري حوله لحكمة فلا يعيش الضياع (كالناقة التي لم تعلم لِمَ عُقِلَت ولِمَ انفلتت).

ـ يصبح من أهل الحق، فينصر الحق ويصارع الظلم والممارسات الخاطئة (آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر) فيعيش جولة الحق وصراعه وينعم برضا ربه ويشعر بكيانه.

ـ يصبح محباً للخلق حانياً عليهم ليس عدواً لأحد ولكن عداوته للممارسات الخاطئة ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٨].

* * *

اليقيـــن

(أفضل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر)

بني الإيمان على:

أ ـ اليقين: وهو الاستقرار (يقن الماء: أي استقر).

ب ـ الصبر: وهو ثبات باعث الدين أمام باعث الشهوة ، وهو مقام من الدين ، والصبر لا يكون إلا بعد معرفة الله تعالى وتصديقه وتصديق ما جاء به رسوله ﷺ والخوف من فوات رضاهما ، فإذا عرف العبد ربه وتحقق بِعظَم الذنب الذي اقترفه أمامه (صار له إيمان)؛ لأن الصبر نصف الإيمان ، فالصبر لا يكون إلا بترك الذنب ، وإلا فالإصرار على الذنب يعني ترك الإيمان.

ـ ويتلذَّذ الفكر بأمور الدنيا على سبيل الاستراحة والتلهي ، أما التفكر بأمور الآخرة فهو مؤلم للقلب وينفر منه وخاصة أهوالها وشدائدها علماً بأنه هو الفكر النافع ، وهذا لا يكون إلا بالصبر على المؤلم وترك المفرح.

يقول عليه السلام: «من أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر ومن أُعطي حظه منهما لم يبال بما ناله من صيام النهار وقيام الليل ، ولئن تصبروا على ما أوتيتم عليه أحب إلي من أن يوافيني كل امرئ منكم بمثل عمل جميعكم ، ولكني أخاف أن تفتح عليكم الدنيا بعدي فينكر بعضكم بعضاً وينكركم أهل السماء عند ذلك ، فمن صبر واحتسب ظفر بكمال ثوابه ثم

قرأ : ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم . . ﴾ [النحل: ٩٦]». والصبر لا يكون في الملائكة لكمالها ، ولا يكون في البهائم لنقصها.

ـ والصبر درجات: منها: ترك الشهوات ، والرضا بالمقدور ، ومحبة العبد ما يصنع به مولاه.

ـ والصبر باعتبار حكمه: صبر فرض ، (وهو صبر على الطاعات).

صبر نفل ، (وهو صبر على المكاره).

صبر محظور (وهو الصبر على المعاصي).

ـ كل بلاء يقدر الإنسان على دفعه فليس فيه صبر ولا يجوز الصبر عليه.

ـ كل نعمة لا توصف بأنها بلاء مطلق ولا نعمة مطلقة فيجتمع فيها على العبد وظيفتا الصبر والشكر.

وحتى يصل الإنسان إلى الصبر لا بدّ له من الإيمان الذي يبنى على تصديق ما جاء به الله ورسوله ﷺ، وبالتالي التحقيق بعظم قيمة الذنب لأنه مخالفة وعصيان لله ولرسوله ﷺ والذي لا يكون إلا عن طريق التعلم والذي أساسه الخوف من الله الذي يدفع العبد للمعرفة والتعلم. فكيف يرضى بالمصيبة ويشكر الله عليها إذا لم يعلم أن ثوابها أكبر منها؟!

ونعمة العافية (ما أعطي أحد أفضل من العافية إلا اليقين) عافية القلب (اليقين) أثمن من عافية البدن (سلوا الله العافية) ، (أفضل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر).

ـ والمرء يعمل بيقينه فاليقين أفضل العمل؛ لأنه بين الناس.

ـ ويتوصل إلى علم اليقين بالنظر والاستدلال ، أما عين اليقين: فبالمشاهدة ، أما حق اليقين: فبالتحقيق (فوق المشاهدة).

مع ضعف اليقين يحبط شكُّه عبادته (عمله) فمجتهد العبادة (كثير

العمل) مع قلة الذنوب. أما قليل العبادة ، قليل الذنوب فعبادته تمحو ذنوبه.

فعلوم الإيمان علوم القلب ، وعلوم الإسلام علوم الأقوال والأعمال ، وكل علم لا يوافق السنة فهو رذيلة.

ـ والتوحيد أن تغفر جهل القوم ، وتمنع جهلك عنهم ، وتبذل لهم حاجتهم وتكون آيساً منهم لحاجتك.

ـ والعلم منه: أـ فريضة (ما لا بد للإنسان من معرفته). ب ـ فضيلة (ما زاد عن الحاجة).

ـ وأعلم الناس من عمل بما علم ، وأجهل الناس من ترك العمل بما علم.

ـ وأخشعهم لله أفضلهم ، وينْتَفي العلم عن الذي لا يخاف الله ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨].

* * *

طهارة القلب

ـ **مراقبة الله تعالى**: العبد إذا اعتاد سماع الكذب والباطل وقبوله ومجاورة أهله ومشاكلتهم ، أكسبه ذلك تحريفاً للحق ، فإذا قبل الباطل وأحبه ورضيه ثم جاء الحق بعده ردّه وكذبه ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ . . ﴾ [البقرة: ١١].

قال الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه: لو طهرت قلوبنا لم تشبع من كلام الله جل جلاله.

ودخول الجنة موقوف على الطهارة؛ لقوله تعالى: ﴿ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾ [الزمر: ٧٣]، وقوله: ﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٣٢] ومن دعاء الرسول عليه السلام: «اللهم طهر قلبي من النفاق وعملي من الرياء ، ولساني من الكذب وعينيَّ من الخيانة ، فإنك تعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور» ، وجاء أيضاً: «اللهم طهر قلبي بالماء والثلج والبرد»؛ لأن للخطايا حرارة لا يطهرها إلا هؤلاء.

لذا ورد في حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، تعرّف على الله في الرخاء يعرفك في الشدة ، وإذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، رفُعت الأقلام وجفَّت الصحف».

واعمل لله بالشكر وباليقين واعلم أن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً ، وأن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسراً.

وفي الأثر: العظمة إزاري والكبرياء ردائي ، فمن نازعني واحدة منهما أسكنته ناري.

والسعي هو من شكر النعمة وهو سنة الأنبياء ، والتواكل هو من كفر النعمة ، والدنيا المذمومة هي الغفلة عن ذكر الله؛ لقولهﷺ: «نِعْمَ المالُ الصالح للعبد الصالح».

* * *

الإيمـــان بالرســـل

﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ﴾ [الأنعام: ٩١]

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ﴾ [النساء: ١٥٠ ـ ١٥١]

فالإيمان بالأنبياء وبأن الله تعالى أرسل رسلاً هو جزء من الإيمان بالله؛ لكماله وعدله وسَعَة رحمته تعالى (التي وسعت كلّ شيء) ومحبّته لخلقه وإعذاره لهم وإقامة الحجّة عليهم؛ لذا أرسل الرسل مبشّرين ومنذرين، وأرسل مع كلّ رسول آية تدلّ على صدقه حتى لا يلتبس الأمر على الناس.

فقد اختار ربنا خيرة خلقه (من البشر) لصفات معينة وضعت فيهم. ﴿ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الدخان: ٣٢].

ـ ومهام الرسل جميعاً الدعوة إلى الله وتوحيد عبادته والتقيد بما شرع، وترك عبادة الأوثان وشرائع البشر الضالّة التي تفسد حياة الفرد والجماعة وتثير الأحقاد والضغائن والفساد بين العباد.

فخالق هذه النفس الإنسانية يعلم مصلحتها وما يصلحها وما تتقبله وما ترفضه، وهذا العلم يناسب نفسية الرسل الذين اختارهم وأهّلهم بمؤهلات خاصة إضافية عن البشر؛ ليؤثّروا في نفوس البشر من ذلك الأصل الطيب والمنبت الحسن الذي لا شائبة فيه فلا يوجد في أصلهم مجالٌ للقدح (أتيت من نكاح ولم آتِ من سفاح)، قالوا: ﴿ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾ [مريم: ٢٨].

ـ السيرة الحسنة قبل البعثة والنبوة: فلا يؤخذ على أحدهم انحراف سلوكي بل عصمة من الزلل.

ـ لهم قوة تأثير في الآخرين بما لديهم من قوة الحجة وقدرة على الإقناع، مثل إبراهيم ـ عليه السلام ـ قال تعالى: ﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ . . ﴾ [الأنعام: ٨٠]، ﴿ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، و﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ . . ﴾ [الأنعام: ٨٣].

ـ قدرة على الصمود وإزالة السيل الجارف من الضلالات في مجتمع جاهلي محض منحرف ضال وذلك يحتاج إلى (عزيمة صلبة وإرادة خارقة وتحمّل فوق الطاقة)، قال نوح: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ۝ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا . . ﴾ [نوح: ٥ ـ ٦].

ـ سرعة بداهة وفطنة، كما يلاحظ من سيرتهم، قال فرعون: ﴿ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴾ و قال موسى عليه السلام: وإني أظنك يا فرعون مثبوراً، وكتكسير إبراهيم عليه السلام للأصنام وقوله لقومه: ﴿ فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴾ [الأنبياء: ٦٣]، وقوله: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

ـ الصبر على الابتلاءات وتحمّل الأذى من أقوامهم، وتحدّيهم لسلطانهم بنفسٍ أبيّة لا تهاب ﴿ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴾ [هود: ٥٥].

ـ تأييد ربهم لهم وتثبيتهم وإعطاؤهم من الآيات المعجزات ما يشد أزرهم أمام أقوامهم ﴿ قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [آل عمران: ٤٩]. وما من نبي إلا وقد أوتي من الآيات ما أسلم عليه قومه.

ـ وهم بشر يعيشون حياة البشر، يأكلون الطعام ويسعون وراء حاجاتهم ويتزوجون ويصيبهم المرض وكل ما يصيب البشر. ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ﴾ ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ﴾.

ـ وهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً، ولا يملكون حياة ولا موتاً،

ولا يعلمون الغيب ، ويموتون ويُقتلون. ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعًا وَلَا ضَرًّا﴾ [الأعراف: ١٨٨] ، ﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي﴾ [الأحقاف: ٩] ، ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ [الأنعام: ١٥].

ـ جَلَد على العبادة في الظروف الصعبة ، قال تعالى: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾ [سبأ: ١٠] ، كما وقال: ﴿إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ﴾ [سورة ص: ١٨].

ـ سرعة في الفهم ، قال تعالى: ﴿فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ﴾ [الأنبياء: ٧٩] ، وقال: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ﴾ [سورة ص: ٢٠].

ـ ابتلاؤهم أمام أقوامهم ليزيدهم مكانة وصبراً على أذاهم ، قال تعالى: ﴿كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ﴾ [الأحزاب: ٦٩].

ـ وهم مبلِّغون عن الله وليسوا واسطة بين الله وعباده (تتم عبادة الله عن طريقهم) فطاعتهم ومحبتهم والإيمان بهم هي عين طاعة الله ومحبته والإيمان به قال تعالى: ﴿لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الفتح: ٩] ، وقال: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ [النساء: ٨٠].

ـ وهم قدوة ومثل أعلى في العبادة والسلوك يسألهم الله يوم القيامة عن التبليغ ، وقد توعّد الله من يشاقق الله ورسوله بالنار.

إنَّ من نعمة الله على البشرية إرسال الرسل واختيارهم لحمل رسالته إذ بهذا يتصل الملأ الأعلى بالخلق ، فحاجة الإنسان للوحي لتتصل روحه بالملأ الأعلى ، وحاجة جسمه للوحي ليعرفه على أسس سلامته وحاجته ليحافظ على نفسه ليتمكن من القيام بما كُلِّف به من عبادة ربه. فيمنعهم من التذلل والتعبّد لبعضهم البعض يحنون إليهم هاماتهم ويبددون طاقاتهم التي منحهم إياها؛ ليسخروها للاستخلاف في الأرض فيُؤلهون عبيداً مثلهم ، قال تعالى: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ [آل عمران: ١٦٤] ، وقال:

﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [النساء: ١٦٥]. فشكر الله على هذه النعمة دليل استقامة المعايير في النفس الإنسانية.

والعلاقة بين فطرة الإنسان ونواميس ربّ العالمين في الكون يتلاقيان بالإيقاع والدلالة، فلا مكان لمن عرف الله تعالى ونواميسه أن تقبل فطرته أن يدخل في عبادة (طاعة) الطغاة، لذا فعمل المؤمن له باعث وقصد وغاية.

ومن هنا كان عمل الطغاة الصراع مع الأنبياء حتى لا يفسدوا عليهم شعوبهم، وقال فرعون: ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴾ [غافر: ٢٦].

وهكذا فإنكار النبوة والرسل دليل على عدم معرفة الله وتقديره حقَّ قدره، وإن إنكار أو تكذيب أحد الرسل هو تكذيب لهم جميعاً ﴿ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴾ [سورة ص: ١٤]، وكذلك لا يجوز التنطع بتسمية رسول أو نبي لم يسمه القرآن الكريم أو رسول الله ﷺ. قال تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ﴾ [الأنعام: ٩١].

فالاستهانة بالرسالة تعطيل لحمد الله، قال تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ . . ﴾. [الكهف: ١] وتعطيل لصفات كمال الله تعالى وإثبات للشريك والأنداد؛ لأنه لا سبيل لمعرفته تعالى إلا برسله، ولا سبيل لمعرفة ما يُعبَد به ويطاع إلا برسله.

لذا فشهادة التوحيد تقترن بشهادة الرسول ﷺ؛ لأنه الدالّ والمبلّغ عن ربّه فكونه تعالى ربّاً والربوبية تقتضي أمراً للعبد ونهياً، وجزاءً للمحسن وعقاباً للمسيء، وهذا لا يكون إلا بالرسالة.

ـ وكونه تعالى رحيماً ومن كمال رحمته أن يعرِّف عباده بنفسه وصفاته ويدلهم على ما يقربهم إليه.

ـ كما أن إرسال الرسل موجب لكمال ملكه وسلطانه؛ (لأن الملك يقتضي التصرّف بالقول والعمل).

ـ كما أن ثبوت يوم الدين ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ٦] لا يكون إلا بثبوت الرسالة.

ـ وكونه تعالى معبوداً فلا يُعبَد إلا بما يحبّ ويريد، ولا سبيل لمعرفة ذلك إلا بالرسل.

ـ أما إنعامه على أهل الهداية فأية نعمة أكبر من إبلاغهم رسالته وجعلهم قابلين للهداية.

ـ وينقسم العباد إلى: مُنعَم عليهم، ومغضوب عليهم، والضالين، وهذا الانقسام بعد إرسال الرسل، فلولا إرسال الرسل لكانوا أمة واحدة، قال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ..﴾ [البقرة: ٢١٣]. وقال: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧].

ـ إن إثبات الرسالة منه لرسله يثبت له صفة التكلّم (لمن أنكر كونه متكلِّماً) وأن القرآن كلامه.

ـ يدعي النبوة أصدق الصادقين مؤيداً بالمعجزات، وأكذب الكاذبين بالدجل والحيل والتلبيس إذ لا ينطلي ذلك إلا على جاهل، وما ادّعى أحد النبوّة إلا ظهر عليه الجهل والكذب والفجور واستحوذ عليه الشيطان فظهر أمره لمن له أدنى تمييز، قال عليه السلام: «سيكون في أمتي كذابون ثلاثون يزعم كل منهم أنه نبي وأنا خاتم النبيين ولا نبي بعدي».

ـ ولقد أنيط بالرسل استنقاذ الفطرة من الركام، والعقل من الانحراف، والحواس والمدارك من الانطماس، فالعقل يضل تحت ضغط الشهوات، وتتعطل أجهزة الاستقبال في الجسم عند عدم التعرّف على ما في الكون وكتاب الله من الآيات.

والمدارك لا تعصم من الضلال ولا تهدي لليقين ولا تحجب عن الشهوات إذا لم يكن لها ضابط من الدين والعقيدة.

إن شريعة الله في الناس جزء من ناموسه في خلق الكون وكتابه المنزل هو بيان للحق الذي يقوم عليه ناموس الكون.

كما أن العدل الذي يطالب به الأنبياء والخلفاء والناس هو طرف أو جزء من العدل الإلهي أو الحق.

ـ وحتى يبتلي الله الأنبياء والأولياء المؤمنين فيمحص الذين آمنوا فيكفِّر عنهم سيئاتهم إذا اجتازوا الابتلاء، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢]. والذين يصغون للشياطين يقعون في الشرّ، وبهذا يحكم الله على عباده تقيّهم وفاجرهم.

ـ إن معاندي الرسل هم الذين يستطيلون على الناس ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا﴾ [الأنعام: ١٢٣]، أو يتطلعون إلى الرسالة فيتخذون أنفسهم محوراً، يقولون: ﴿حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

ومحمد ﷺ خاتم النبيين وهو سيد ولد آدم وله الشفاعة يوم الحشر، ومن أسمائه عليه السلام: محمد، وأحمد (أحمد الخلق لله تعالى)، والماحي (الذي يُمحى به الكفر)، والحاشر (الذي يحشر الناس على قدميه)، والعاقب (الذي ليس بعده نبي)، وسماه ربنا رؤوفاً رحيماً.

ـ إن إبعاد السنة من الكفر بالله الذي أرسل رسوله ﷺ بالهدى ودين الحق، يقول عليه السلام: «ألا رجل شبعان متكئ على أريكة يقول: بيننا وبينكم كتاب الله فما أحل الله أحللنا وما حرم الله حرمنا... ألا وإني أوتيت القرآن ومثله معه». فالإسلام منهج، وتطبيق السنة فيه شرط محتّم.

ـ فلا يثبت إسلام المسلم ما لم يسلم لنصوص الوحيين وينقاد إليها ولا يعترض عليها ولا يعارضها برأي أو معقول أو قياس. فمن الله تعالى الرسالة ومن الرسول البلاغ، وعلى المسلم التسليم، فالرسول معصوم في

خبر السماء فلا يجوز عليه الخطأ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣ ـ ٤].

ويُحَذَّرُ التكلم بأصول الدين بغير سند شرعي من كتاب أو سنة؛ لقوله عليه السلام: «هلك المتنطعون». ولقد ربط الله تعالى عذاب الآخرة ببعثة الأنبياء، فقال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، وقال: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

ومحبتهم والإيمان بهم عين الإيمان بالله قال تعالى: ﴿لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفتح: ٩].

وسيتبرأ الرسول ﷺ يوم القيامة من كل مبتدع في العبادة كما سيتبرأ من كل ما أحدثته أمته من بعده قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ﴾ [المائدة: ١١٦].

ومحبة الرسول ﷺ تورث المغفرة من الله، ودليل المحبة الالتزام.

* * *

مكانـة الرسول محمـــد ﷺ

وصفه ربنا بأنه على خُلُق عظيم ، وبعبادة ربه بالأفق الأعلى ، وبالنسبة للبشر هو الأسوة الحسنة: ﴿ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ ﴾ [الأحزاب: ٢١] ، فلا تأسِّي بالعبادة والتقرب إلى الله إلا به.

وصفه بأنه شاهد (على الخلق) ، بالدعوة ومبشر (للمؤمنين بالله ورسوله) ، بالجنة ونذير (لمن خالف دعوته ولم يؤمن به) بالويل والثبور والمعيشة الضنكى وأنه سيحشر يوم القيامة أعمى ومصيره جهنم.

وجعل الإيمان به من الإيمان بالله لا ينفصلان قال تعالى: ﴿ لِّتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ ﴾ (تعظموه) ﴿ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾ [الفتح: ٩] تحترموه غاية الاحترام وتقبلوا حكمه بالرضا والتسليم فيما شَجَر بين المسلمين ولا تعملوا بشيء إلا عن أمره وتسبحوه؛ التسبيح لله لكن لا يكون إلا بعد معرفة الرسول ﷺ وقدره الذي لا يعلم قدر الله أحدٌ مثله ، ومِنَّة الله على عباده بهذا الرسول الكريم بكرة وأصيلاً من أول اليوم لآخره. المؤمن مع الله ورسوله دوماً.

ـ وأمرنا بالصلاة عليه بعد أن أعلمنا أن الله وملائكته يصلون عليه ، فامتثالاً لأمر الله علينا أن نقوم بالصلاة عليه ، ولكنا لا نعرف قدره كما يجب ولا نعرف كيف نصلي عليه ، لذا نحيل الأمر إلى الله تعالى؛ لأنه هو الذي يعرف مكانته ، فنقول: اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد؛ لأن الله أعلم منا بما يليق بمقامه ، والصلاة عليه هي تعظيم له في الدنيا وإظهار لدعوته.

ـ وأمرنا أن لا نرفع أصواتنا فوق صوت النبي ﷺ ولا نجهر له بالقول بل إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله (حياً وميتاً) أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى.

ـ وأمرنا بالصلاة عليه كلما ذكر اسمه دوماً.

ـ وأمرنا أن لا نخالف أمره سراً ولا جهراً قولاً وعملاً: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

ـ وحذرنا أن نجعل دعاء الرسول (التكلم والطلب منه) كدعاء بعضنا لبعض، فمقامه لا يقاس بمقام أي بشر (عظيم أو ملك أو..).

ـ وإذا حكم لنا أو علينا أو أمرنا أو نهانا يجب أن نقول: سمعنا وأطعنا، ولا نعارضه برأي ولا نناديه باسمه إنما بالرسالة والنبوة والتعظيم.

ـ ولا نفكر أن ننكح أزواجه من بعده؛ لأنهن أمهات المؤمنين ولمكانته منا بأنه ولينا وأولى بالمؤمنين من أنفسهم.

ـ ولا نثني على الله ورسوله ﷺ إلا بما أثنى الله (هكذا تعبدنا) أو علمنا رسول الله ﷺ (سبحانك لا نحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك)، وكذلك لا يثنى عليه إلا بالرسالة وبما أثنى عليه ربنا في كتابه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحجرات: ١]، فلا تَنَطُّعَ ولا تجاوز في الحدود لأنه يفخر ـ عليه السلام ـ بما وصل إليه من عبوديته لربه وبما خصه ربه من الرسالة فقال: إنما أنا عبد الله ورسوله.

ـ والرسول ﷺ ليس له مثيل في البشر ولا يكرر على مر الزمن، فليس لأحد أن يمثله أو يتكلم إلا بإذنه فهو خاتم المرسلين، وليس لأحد من البشر أن تنطبق عليه هذه الصفة فمن يدَّعي أنه يمثله في زمانه أو أنه يقوم مقامه بين قومه أو تلاميذه أو مريديه فهو قاصر الفهم ويقيس بغير الحق، ولو ادعى ما ادعى من محبته لرسول الله ﷺ؛ لأن المحبة لله تعالى اتباع الرسول ﷺ فكيف يكون محباً من ابتدع ما لا يقبل به الله والرسول ﷺ. ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى﴾ [آل عمران: ٣١].

وإن أداء فريضة خير من ألف نافلة، وتنفيذ أوامر الله وطاعة الرسول ﷺ لا يُقَدَّمُ عليها رأي ولو كان ممن يدعي المحبة والهيام والنية الحسنة، وقد أنزل الله علينا: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، فلا ادعاء ولا تكلم إلا من مشكاة الرسالة، فالثابت الملزم ما جاء به الرسول ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]. فلا اتباع إلا لمن هو بالأفق الأعلى.

لأن الذي يعظمه الإسلام منسكاً لا يطول غيره أو يطوله في غير حينه، فمكة حرم وليس لمدينة مهما كانت أن يكون لها حرم سوى المدينة وعرفات (منسكاً يوم عرفة وهي ليست كذلك غير يوم عرفة).

ـ وإذا خاطب الأنبياء عليهم السلام أقوامهم بالأدب والحكمة والموعظة الحسنة فليس لنا أن نخاطب الله ورسوله ﷺ إلا بما أمرنا به ﴿تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأنعام: ٦٣] ﴿لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ..﴾ [الحجرات: ٢]، فهل هذا كما في الصياح والرقص والطرب وإثارة الغرائز، وهو الذي قال للمسلمين عندما علت أصواتهم بالدعاء والتكبير والدموع: «أيها الناس أربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصماً ولا غائباً».

وقد ذكر الله نبياً دعا ربه ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾ [مريم: ٣]، أليس يعلم السر وأخفى! أليس قال لموسى عليه السلام: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦].

ـ والحقيقة: أن من لا يعرف مكانة الرسول ﷺ يزيّف بالرفع أو الخفض عندما يطلق له ما لم يقل به.

هذا الرسول الذي أثنى عليه ربنا في كل مجال عندما وصل إلى سدرة المنتهى لم يأخذه الحال والحب فصاح وتكلم بغير حساب بل قال عنه ربه: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم: ١٧]، وكان يفخر بعبوديته لله تعالى فقال: «إنما أنا عبد أجلس جلسة العبد وآكل أكلة العبد».

وعندما دعوه (سيدنا) قال: (قولوا: عبد الله ورسوله؛ السيد هو الله).

ـ إن رسول الله ﷺ لا يعلم الغيب ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

لا ينبغي أن يعصي ربه ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأنعام: ١٥].

ـ أكرمه ربنا بالحوض يوم القيامة يُذادِ عنه من أحدث في دينه شيء ما ليس منه «يُذاد عن حوضي أناس فأقول: هلم هلم فيقال: لا تدري ماذا أحدثوا بعدك فأقول: سحقاً سحقاً».

ـ وأكرمه ربنا بالشفاعة:

ـ حين يرغب الخلائق للأنبياء ليشفعوا لهم ليريحوهم من مقامهم بالموقف.

ـ شفاعته لأهل الجنة بدخولها.

ـ شفاعته لأناس من أمته استوجبوا النار أن لا يدخلوها.

ـ شفاعته لقسم من أهل الجنة في زيادة ثوابهم ورفع درجاتهم.

ـ شفاعته لبعض أهله من الكفار في النار؛ ليكونوا في ضحضاح.

ـ إنه سيد ولد آدم (وليس فخراً) ولكن لتبيان مقامه فنتأدب معه.

ـ إن الصلاة عليه هي تصديقٌ لهذا القرآن وشكرٌ لله على نعمة إرسال الرسل.

وصفه ربنا بأنه رحمة للعالمين، فإذا صلى العبد على رسول الله ﷺ، يكون قد التزم بأمر الله الذي صلى عليه وملائكته وأمرنا بذلك وسيصلي الله على عبده الذي يصلي عليه، ويثيبنا بالصلاة عليه بعشر صلوات، وصلاة ربنا على رسوله ﷺ ليست من نوع صلاتنا فلا نعرف مدى صلاته على رسوله ﷺ إلا بالآخرة بما يليق بمقامه.

أما صلاة ربنا علينا إذا صلينا على رسوله ﷺ فكما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [الأحزاب: ٤٣].

فنعود نرى الحق حقاً ونرى الباطل باطلاً والنور نوراً وتستقيم أمورنا في رحمة ربنا.

كما أن صلاتنا على رسولنا ﷺ يبلغها له ملك كلفه الله بهذه المهمة ويردها ويرضى بها عنا ونكون بها أهلاً لشفاعته ، وتزيدنا من محبته وقربه قال ﷺ: «أقربكم مني مجلساً أكثركم علي صلاة».

اللهم صلِّ وسلم وبارك على محمد وعلى آله وصحبه كما صليت وسلمت وباركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد.

* * *

مكانة الصحابة

إنهم صحابة رسول الله ﷺ الذين غرفوا من معين رسول الله ﷺ لقوله تعالى: ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، فهم خير الناس وأعدلهم في أقوالهم وأفعالهم فهم شهود الأمة بشهادة رسول الله ﷺ عليهم فهم الذين رضي الله عنهم ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ..﴾ [الفتح: ١٨]، وهم الذين وصفهم ربنا بقوله: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ﴾ [الفتح: ٢٩].

وفي الحديث: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين الهادين المهديين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة». (الترمذي عن العرباض).

وعن حذيفة عند الترمذي: «اقتدوا باللذَيْنِ من بعدي: أبي بكر وعمر، واهتدوا بهدي عمار، وتمسكوا بعهد ابن أم عبد».

وفي مسلم عن أبي قتادة: «إن يطع القوم أبا بكر وعمر يرشدوا».

وقال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر بشأن تأمير القعقاع بن حكيم والأقرع بن حابس: «لو اتفقتما على شيء لم أخالفكما». وقوله عليه السلام وقد نظر إلى أبي بكر وعمر: «هذان السمع والبصر».

وقوله عليه السلام: «إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه».

وفي صحيح مسلم عن عائشة «قد كان فيمن خلا من الأمم محدَّثون فإن يكن في أمتي أحَدٌ فهو عمر».

وقوله عليه السلام: «خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم». (وهذا يقتضي تقديمهم على غيرهم).

وفي مسلم عن أبي موسى الأشعري: صلينا المغرب مع رسول الله ﷺ فقلنا: لو جلسنا حتى نصلي معه العشاء فجلسنا فخرج علينا فقال: «ما زلتم هنا؟! فقلنا: يا رسول الله، صلينا معك المغرب ثم قلنا: نجلس حتى نصلي معك العشاء، قال: أحسنتم وأصبتم ورفع رأسه إلى السماء (وكان كثيراً ما يرفع رأسه إلى السماء) فقال: النجوم أَمَنَةٌ السماء فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ما توعد، وأنا أَمَنَةٌ لأصحابي فإذا ذهبت أتى أصحابي ما يوعدون، وأصحابي أَمَنَةٌ لأمتي فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون».

فنسبة الصحابة إلى من بعدهم كنسبة رسول الله ﷺ لأصحابه وكنسبة النجوم إلى السماء.

ـ قوله عليه السلام: «مثل أصحابي كمثل الملح في الطعام فالملح صلاح الطعام وهم صلاح الأنام».

ـ وقوله: «لا تسبوا أصحابي فلو أن أحدكم أنفق مثل أُحُدٍ ذهباً ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نَصِيْفَه».

ـ وقوله: «إن الله اختارني واختار لي أصحاباً فجعل لي منهم وزراء وأنصاراً وأصهاراً».

ـ عن ابن مسعود قال: إن الله نظر في قلوب العباد فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد فبعثه برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد ﷺ فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد فاختارهم لصحبة نبيه ونصرة دينه، فما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن وما رآه المسلمون قبيحاً فهو عند الله قبيح.

وعن ابن مسعود: من كان متأسياً فليتأسَّ بأصحاب رسول الله ﷺ فإنهم كانوا أبرَّ هذه الأمة قلوباً وأعمقها علماً وأقلها تكلفاً وأقومها هدياً وأحسنها

حالاً ، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ وإقامة دينه ، فاعرفوا لهم فضلهم واتبعوا آثارهم فإنهم كانوا على الهدى المستقيم.

والصحابة كلهم عدول ولم يشذ فيهم أحد أو يقول بغير ما جاء بالكتاب والسنة ، وإذا قال الصحابة قولاً أو بعضهم ثم خالفهم مخالف من غيرهم كان مبتدعاً (إذا كان مبتدئاً له).

والرسول الكريم ﷺ يقول: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين الهادين المهديين من بعدي تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار».

ويقول ابن مسعود: اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كُفيتم ، فكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة.

ويقول أيضاً: إننا نقتدي ولا نبتدي ونتبع ولا نبتدع ، ولن نضل ما تمسكنا بالأثر.

وقال أيضاً: إياكم والتبدع وإياكم والتنَطُّع وإياكم والتعمق وعليكم بالدين العتيق.

وقال عمر بن عبد العزيز: ارضَ لنفسك ما رضي القوم وقِفْ حيث وقف القوم ، وقل كما قالوا واسكت عما سكتوا؛ فإنهم عن علم وقفوا وببصرنا قد كفوا وهم على كشفها كانوا أقوى وبالفضل لو كان فيها أحرى فلئن كان الهدى ما أنتم عليه فلقد سبقوكم إليه ، ولئن قلتم: حدث بعدهم فما أحدثه إلا من سلك غيرَ سبيلهم ورغب بنفسه عنهم ، وإنهم لهم السابقون. كان ينزل القرآن على رسول الله ﷺ وهو يعرف تأويله فما عمل به من شيء عمل الصحابة.

وفي الصحيح من طريق عوف بن مالك الأشجعي قوله عليه السلام: «تفترق أمتي علي بضع وسبعين فرقة أعظمها فتنة على أمتي قوم يقيسون الأمور برأيهم يُحِلُّون الحرام ويحرمون الحلال».

وعنه قريباً من التواتر: «ذروني ما تركتكم؛ فإنما هلك الذين من قبلكم بكثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم، ما نهيتكم عنه فاجتنبوه وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم».

وهكذا خَلَفَ من بعدهم خَلْفٌ فرقوا دينهم وتقطعوا أمرهم وأحدثوا في الدين ما ليس فيه وتعصبوا لأفكارهم، وغيرهم قنع بالتقليد، والجميع جانبوا الصواب في الواجب اتباعه. فلا يعد من أهل هذا الدين من أحدث فيه وإن ادعى العلم وكذلك الذي تبعه وتعصب له دون بحث، فهؤلاء ليسوا من ورثة الأنبياء الذين لم يورثوا الدراهم والدنانير. فالإضلال من الله لهؤلاء عقوبة لعدم تمسكهم بروح الدين ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨].

فمن لم يكن في هذا الدين على بصيرة المتبع لهدي رسول الله ﷺ والوحي سيكون من المشركين ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ﴾ [التوبة: ١١٥]، أي يضلهم بعد أن بين لهم السبيل الحق ليستضيئوا به ويتقوا به (الفواحش والإثم والبغي والعدوان)، فإذا عتوا عما نُهوا عنه أضلهم فمسخ عقولهم وفهمهم وأبعدهم عن الحق فكانوا قردة وخنازير.

ـ كان فهم الصحابة للدين فهماً شاملاً لكامل العقيدة وكانوا متبعين لمنهج الكتاب والسنة في إثبات الكمالات الإلهية، ونفي النقائص عنه تعالى دون تمثيل أو تعطيل أو تأويل أو حتى الكيف، ولذا كانوا لا يناقشون في الصفات بسبب فهمهم للبيانات العالية لنصوص الكتاب والسنة فقد بلغوا المطلوب في فهم القضاء والقدر؛ فآمنوا أن الله تعالى خالق لأفعال العباد وأن العبد ليس مجبوراً على فعله وأنه مسؤول عنها ينال عليها الأجر والعقاب، وأن رسول الله ﷺ نهاهم عن النقاش في هذا المجال فامتثلوا وكانت مسائل القدر ورؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة والحساب والعذاب والجنة والنار واضحة في أذهانهم. فلم يفرقوا بين الإيمان والعمل فالإيمان ليس ادّعاءً إنما هو أعمال وأقوال.

فمن اهتدى بنور النبوة صارت له حياة الإرادة والهمة وحياة الأخلاق والصفات الحسنة وحياة السرور وقرة العين بالله وحياة الأبدية بالجنة، وذلك لا يكون إلا بالتقرب إلى الله بالعبادات التي شرعها وبيَّنها الأنبياء عليهم السلام.

﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ﴾ [سبأ: ٦]، ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ [المجادلة: ١١]، العلم الذي بعث به الله رسوله ﷺ بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [التوبة: ١١٩].

* * *